الزمان فى فلسفة القديس أوغسطين
(دراسة تحليلية نقدية)

نانسى أمير توفيق مرقص
باحثة دكتوراه في الفلسفة القديمة والعصور الوسطى الغربية
قسم الفلسفة – كلية الآداب
جامعة الإسكندرية

أتناول فى هذا البحث مفهوم الزمان فى فلسفة القديس أوغسطين. وأوغسطين رجل دين وفيلسوف فى الوقت نفسه – رجل دين ينتمى إلى عصر الآباء الذين تولوا الدفاع عن العقيدة المسيحية ضد الغارات العنيفة التى شنها الوثنيون، وفى مقدمتهم مذهب الأفلاطونية المحدثة. وفيلسوف لأنه قدم مذهباً أو نسقاً فلسفياً متكاملاً شاملاً – فى الألوهية، والنفس، والعالم، والمعرفة، والسياسة، والأخلاق، والفن وغيرها من الموضوعات.

وقد عرض لمفهوم الزمان فى الكتاب الحادى عشر من الاعترافات (The Confessions)، متسائلاً : "ما الزمن إذن ؟ إذا لم يسألنى أحد فأنا أعلم، وإذا رغبت فى أن أشرحه لسائل ما، فأنا لا أعلم " إن الزمن لغنى عن التعليق والتعريف، بالإضافة إلى صعوبة التفكير فيه". لافتآ النظر إلى عدم دقة التعبير الشائع فيقول : " معظم الأشياء التى نتحدث عنها بشكل غير دقيق ، لا تزال هي الأشياء التى نرغب بشدة فى فهمها ".

ويرى القديس أوغسطين أن الزمان هو صورة الأبدية، والزمان لا وجود له بوصفه أزلياً أبدياً، وإنما وجد الزمان كما وجدت الأشياء.كما أعلن أن هناك حاضر الماضي الذي يستند إلى ملكة التذكّر، وحاضر الحاضر الذى يرتكز على ملكة الانتباه، وحاضر المستقبل الذي يقوم على ملكة الأمل أو التوقّع أو الاستباق.

الزمن ضحية للمبالغة فى استخدام اللغة ، يقول أوغسطين : " من أجل أن نتحدث عن الزمن نجد لدينا في اللغة عدداً قليلاً من الجمل الدقيقة ، ولكن لدينا جملاً أكثر غير دقيقة على الإطلاق ".

فتتعدد معانى كلمة زمن كما نجد أنها توسعت واتسعت بالتدريج، بحيث أصبحت تعنى العديد من الأشياء المختلفة مثل : التتالى، والتأنى، والمدة، والتغير، والصيرورة، والإستعجال، والإنتظار، والإنهاك، والسرعة، والشيخوخة، بالإضافة إلى أنها أحيانآ ما تأخذ مدلول المال أو الموت أيضآ.

إشكالية البحث وتساؤلاته :

يتناول هذا البحث مفهوم الزمان فى فلسفة القديس أوغسطين وذلك من خلال الإجابة عن التساؤلات التالية :

١- ما طبيعة مفهوم أوغسطين عن الزمان ؟
٢- ما مفهوم القديس أوغسطين عن اللحظات الثلاث التى تشكل الزمان : (الماضى – الحاضر – المستقبل) ؟

٣- ما علاقة الإنسان بالزمان بإعتباره موجوداً زمانياً فى الأساس ؟
٤- ما حقيقة علاقة التاريخ بلحظات الزمان الثلاث عند أوغسطين ؟

محاور البحث :

١- نظرية الخلق فى الزمان عند القديس أوغسطين.
٢- مشكلة لا تناهى الزمن.
٣- خلق الملائكة والسماء.
٤- خلق الأرض والمادة.
٥- كيفية قياس الزمن.
٦- الأبدية هي الطريق نحو فهم الزمان.
٧- ارتباط وجود الزمان بوجود العالم وخلقه.
٨- الديمومة الحقيقية.
٩- مصدر الزمن.
١٠- طبيعة الزمن.
١١- المدة الزمنية التى خلق بها الله العالم.
١٢- أهمية نظرية القديس أوغسطين فى الزمن.

منهج الدراسة :

أُستخدم فى هذه الدراسة المنهج التحليلى والمنهج النقدى حيث إنهما يستقيمان تماماً مع موضوع الدراسة.

تمهيد :

تعود أول محاولة منهجية من الكتاب والمؤلفين المسيحيين لتعريف مفهوم الزمن والأبدية للقديس أوغسطين (Saint Augutine) ٣٥٤- ٤٣٠م، فنجد في التعليقات على سفر التكوين في كتابه الهام : (الاعترافات The Confessions) ومجلده : (مدينة الله De Civitate Dei) أو (The City Of God) أنه تعامل مع موضوع الزمن باعتباره بمثابة مشكلة لاهوتية جوهرية تتضمن بعدًا نفسيًا أخلاقيًا في الوقت نفسه.

الزمن باعتباره النواة لفكر أوغسطين كان مصدرًا لا يمكن إنكاره للحيرة، وتضمن تعريفه على غموض والتباس ومفارقات عديدة. لقد كان هناك ثلاث مشكلات أو مسائل رئيسة مترابطة: التعريفات الخاصة بطبيعة الله ، ومخلوقاته بناء على الثنائية بين الأبدية والزمن ، وثالثاً تأويل الزمن على أساس التجربة النفسية، بالإضافة إلى الإطار النظري

للتاريخ المقدس. إن الثنائية الخاصة بالزمن والأبدية نشأت من التعددية أو الكثرة في مقابل الوحدة والحركة على اعتبار أنها عكس الراحة. ويزعم أوغسطين أن الأبدية كانت موجودة حاضرة تماماً، بينما كل شيء موقت أو وقتي كان يتغير على الدوام.(١)

ويقول : " يارب، إن الأزلية ملك لك وإنك في الزمن، ترى كل ما يحدث : " يارب لك النهار ولك الليل " (مزمور 73: 16)، كما أن الأوقات تتحرك تبعًا لأوامرك، فتكرم علي يارب بالوقت الكافي لكي أتمكن من تأمل أسرار شريعتك، ولا تغلقها بوجه من يقرعون بابك".(٢)

نظرية الخلق فى الزمان :

يرى القديس أوغسطين أن الخلق هو خلق من عدم، وبمجرد الكلام أو إعطاء الأمر من قبل الله فحسب، وينتج عن ذلك أن عملية الخلق لا تشارك في الكائن، ولكنها تشارك في اللاكائن، وبالتالي يكون هناك نقص أصلي يُولِّد في المخلوقات حاجة للاكتساب والتغير أيضًا، ومشيئة الله تعالي هي سبب الخلق، وذلك من خلال الكلام الإسمى أي (الكلمة) وذلك بفعل حر تمامًا ومن العدم. وإنه بخلق الله للعالم خلق الزمان أيضًا بإرادة أزلية، وبفعل أزلي، وحين نقول إن الله يخلق، فذلك يكون من العدم، وليس كالفنان الذي يخرج مشكلات فكرة على المادة الموجودة أمامه.

وإن الخلق لم يصدر صدورًا ضروريًا أزليًا كلها ذهب إلى ذلك كل من أفلوطين والماثونيين أيضًا لأنه لو كان صدورها ضروريًا أزليًا، لكان يعني أن الذات الإلهية ممكنة التجزؤ وأن جزءاً ما منها يصبح زمنيًا متغيرًا، أي عكس الله تعالى والذي هو ثابت أزلي أبدي سرمدي، وأيضًا فإن القوى بالخلق الضروري الذي اعتقده أفلوطين يقلل من قيمة الله، فيصبح هنا متغيراً كالبشر، يتطور ويعدل وهذا خاطيء، وغير مقبول إطلاقًا.

كما أن الزمن لم يمكن موجودًا قبل وجود العالم، فقد خلقه الله في وقت ما، فيبدأ في الأشياء، وإنه لا فائدة من السؤال: ماذا كان يفعل الله قبل خلق العالم؟ لأنه ليس عند الله ما هو قبله ولا ما هو بعده، ولا ما هو أمامه أو ما هو خلفه. إنه ليس هناك لله ماضيًا ولا مستقبلًا، ذلك أن له معرفة واحدة وغير منقسمة.(٣)

---

(1)- Simaon Cohen , Transformation Of Time And Temporality In Medieval And Renaissance Art , Brill, U.S.A. 2014, P.43.

(٢) – الخورى يوحنا الحلو، إعترافات القديس أوغسطين، التراث الروحي، الكتاب الحادى عشر استغاثته بالله في أداء رسالته الجديدة، ط4، بيروت، لبنان، دار المشرق، 1991، ص ص239 ،240.

(٣) – علي زيعور، أوغسطينوس مع مقدمات في العقيدة المسيحية والفلسفة الوسيطة، ط١ ، دار إقرأ، بيروت، لبنان، 1983، ص ص161، 162.

يؤمن أوغسطين تمامًا بالفكرة المسيحية القائلة بأن فعل الخلق واحد، ويفسر ذلك بقوله: إن الله خلق أولًا المادة غير المصورة (Materia Informia)، وفي هذا الفعل نفسه وجدت الصورة، واتحدت بالهيولى. ومن اتحاد : المادة (الهيولى) والصورة حدث فعل الخلق الأول. وحين خلقت الأشياء، كان الزمان لا وجود له إلا من حيث اعتبار الأشياء المخلوقة فحسب. ويعرف القديس أوغسطين الزمان بأنه صورة الأبدية كأفلاطون، وأن الزمان ليس له وجود بوصفه أزليًا أبديًا، ولكن وجد الزمان كما وجدت الأشياء. وهو هنا متسق مع رأي المسيحية القائل بخلق الزمان، وبأن الزمان مخلوق.(١)

المشكلة المطروحة للمناقشة والدراسة في الكتاب الحادي عشر من (الاعترافات): مادام الخلق قد تم من عدم، كما يصرح بذلك الإصحاح الأول من (سفر التكوين)، فقد كان يجب أن يحدث في أقرب فرصة ممكنة.

ولتوضيح ذلك الاعتراض نقول إن فكرة الخلق من لا شيء، من العدم في الكتاب المقدس (سفر التكوين) تعد فكرة غريبة كلية تمامًا عن الفلسفة اليونانية، فالإله عند كل من أفلاطون وأرسطو أقرب ما يكون إلى الفنان أو الصانع أو مهندس العمارة، منه إلى أن يكون (خالقًا)، فالمادة عندهما أزلية لم تخلق، وإرادة الله خلقت الصورة فحسب وليس المادة. وآمن القديس أوغسطين برأي الكتاب المقدس (العهد القديم) منه بأن العالم لم يخلق من مادة بعينها وأنه خلق من لا شيء، فالله خلق المادة، ولم يكن دورة مقصورًا على النظام أو الترتيب.

ونجد أن الفكرة الإغريقية القائلة باستحالة الخلق من لا شيء ظهرت مجددًا في العصور المسيحية، وانتهت إلى مذهب وحدة الوجود الذي يرى أن الله والعالم لا يتميزان عن بعضهما البعض على الإطلاق، وأن كل شيء في العالم هو جزء من الله ، وبلغ هذا المذهب أقصاه عند باروخ سبينوزا.(٢)

ولكن نلاحظ إن في هذا التصور تشبيهًا لله بالصانع البشري والذي يصنع ويخلق في الزمان، لذلك لا يجب علينا فهم الكتاب المقدس على ظاهره، ذلك إن الكتاب نفسه يشهد بأن الأيام المذكورة فيه تختلف تمامًا عن أيامنا نحن، فيذكر مثلًا خلق الكواكب في اليوم الرابع، وأن يومًا واحدًا يمثل زمن تكاثر الحيوانات على الأرض، مما يفوق القوة الطبيعية المعروفة، وأيضًا القول بأن الله استراح في اليوم السابع، يعني أنه توقف عن الخلق وأن الراحة مستمرة،

(١) – عبد الرحمن بدوي، فلسفة العصور الوسطى، ط٣ ، دار القلم، بيروت ، لبنان ، ١٩٧٩، ص٣١.

(٢) – برتراند رسل، تاريخ الفلسفة الغربية، الكتاب الثاني الفلسفة الكاثوليكية، ترجمة : د. زكي نجيب محمود، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة ، ٢٠١٠م ، ص٨٠.

إذن فاليوم السابع للخلق ليس يومًا عاديًا، ولكن الخلق حدث وتم في لحظة، وأن الأيام الستة الواردة في سفر التكوين هي بمثابة تفصيل لتلك اللحظة غير المنقسمة وغير المنفصلة.(١)

مشكلة لا تناهى الزمان :

حاول القديس أوغسطين إعطاء تحليل عقلي لمشكلة لا تناهي الزمن. فالزمن يمضى بالنسبة لنا وحدنا، ونتوقعه كمستقبل، كما أن الزمن يمضي كلحظة حاضرة، ونحن نتذكره كماض، ولكن الإله ليس في الزمن. وذلك أن ألف عام بالنسبة لله كيوم واحد، واليوم عنده كألف عام، وأن الزمن قد خلق مع العالم، وينتمي إلى العالم، وبالتالي فإن الزمن لم يوجد قبل وجود العالم ، وأما بالنسبة إلى الإله فإن كل مجرى الكون قد أقيم في الحال، بالإضافة إلى إنه لم يكن هناك زمان قبل خلق العالم من قبل الله. ويتضح أن كلمة (يخلق) هنا تثير عدة صعوبات جوهرية. لأنها تفهم عادة أن شيئًا قد وجد في الوجود ولم يكن موجودًا من قبل، وهي هنا تفترض مسبقًا مفهوم الزمن، ولذلك فمن المستحيل تعريف جملة (لقد خلق الزمن)(٢).

خلق الملائكة والسماء :

ويستشهد بالكلمات الأولى من سفر التكوين والتى تقول : " في البدء خلق الله السموات والأرض "، ويصرح بأنه من الواضح أن كل الأشياء مخلوقة لأنها موضوع للتغيير وخلقهم الله بواسطة الكلمة يسوع المسيح. كما أن الكلمة منبثقة من الله وليست مخلوقة.(٣)

يرى أوغسطين أن حديث الآيات حول خلق السماء والأرض لا يقصد بها الموجودة اليوم. فالسماء المقصود بها في الآية مادية روحانية هي الملائكة، والملائكة ليست خالدة على خلود الله، ولكن فيها أساس أو ركيزة مادية ومتحركة ككل المخلوقات، والملائكة غير متحركة بسبب سعادتها، وبالتالي فهي لا تخضع للتغير، ولا تقع ضمن نطاق ونظام الزمن ولكنها ، رغم ذلك ، متحركة بطبيعتها، وذلك بدون أن ترتفع إلى مرتبة الخلود.

خلق الأرض والمادة :

خلقهما الله بلا صورة (Materia – Informis – Informe)، وذلك على العكس من المادة الروحانية، ونجد أنه في فعل الخلق نفسه وجدت الصورة، واتحدت بالهيولى بمعنى

---

(١) – يوسف كرم، تاريخ الفلسفة الأوروبية في العصر الوسيط، مؤسسة هنداوي ، القاهرة، ٢٠١٤، ص٤٣.

(٢) – فيرنر هاينزبرج، الفيزياء والفلسفة، ترجمة : أحمد مستجير، تقديم : بول دافيز، ط١ ، المكتبة الأكاديمية، ١٩٩٣م، القاهرة، ص٨٧.

(3) – Stacy Magedanz, MLS, Cliffs Notes On St, Augustine's Confessions , Wiley Publishing Inc , U.S.A , 2007 , P.71.

أن المادة والتي هي الأرض ليست سابقة على الصور زمانيًا، ولكنها تسبق هذه الصور، وذلك كشرط لبقائها واستمرارها. كما أن المادة الأولى خالية من كل صورة، وهي كالسماء (أي الملائكة) غير مرتبطة في الزمن ووجودها وظهورها إلى الوجود وليس هناك فاصل زمني بين زمن خلق المادة وزمن خلق الصورة، ونجد القديس أوغسطين يميز بين الهيولى والصورة كأفلاطون ويلجأ إلى الفكرة، فالأفكار عند أوغسطين هي عبارة عن (أشكال رئيسة) أو هي الماهيات الثابتة والأبدية للأشياء، إنها خالدة وهي دائمًا في الحالة نفسها بمعنى وجودها في عقل الله، إنها لا تفنى ولا تولد ولكن يتشكل بها ويتكون بها كل ما يولد وكل ما يموت. بمعنى أن الأشياء توجد في العالم بطريقتين مختلفتين :

١- يا إما أن توجد في حد ذاتها:

2- وإما في طبيعتها الخاصة أي في (الله)، وفي مُثلها أي في أفكارها الخالدة.

ولكن هذه الثنائية متآنية بمعنى قيامها في زمن واحد وسويًا، فحين يصنع الحداد صندوقًا، فإنه يوجد قبله في فكره (عقله)، ثم في الشيء المادي، كما أن الوجود المادي للصندوق لا يمنع استمرار وجوده في فكر الحداد، والمقصود بذلك هو أن كل الأشياء الموجودة في العالم حاليًا هي أفكار إلهية في الوقت نفسه.[١]

ويقول : (يارب قلت كلمتك إذًا، فكانت الأشياء، وبكلمتك خلقتها)، ويتساءل حول كيف نطق الله؟ فهل دوى ذلك الصوت، ثم توقف أبدأ، ثم انتهى، أولاً فثانيًا فثالثًا ، وهكذا حتى آخر مقطع حيث ساد السكوت؟

ويرى القديس أوغسطين أن صوت الله هو بالتأكيد حركة لمخلوق، عضو زمني استخدمته مشيئتة الأزلية. وأن كلمات الله المصوغة لبرهة قصيرة من الزمن وصلت من خلال الأذن الخارجية إلى العقل المفكر المصغي بأذنه الباطنية إلى كلمته الأزلية. وأن كلمة الله ثانية إلى الأبد وإلى الأزل لا تتغير.

ويتساءل: " أي كلمة استعملت يارب حين خلقت الجوهر الذي استخدمته لتركيب تلك الكلمات ؟ " فكلمة الله منبثقة منه منذ الأزل، وإلا لكان الوقت والتغير، وما عادت الأزلية تعد أزلية حقًا، ولا يكون الخلود خلودًا حقًا، (وفي البدء) خلقت السماء والأرض، بكلمة الله، وقدرته، بحكمته وبحقيقته، فالله ما أعجبه متكلمًا وصانعًا"، ويتعجب القديس أوغسطين فيقول: "إنه ليس هناك من يقوى على فهم هذه الأعجوبة ؟ ومن ذا الذي يستطيع أن يحكيها لنا؟"[٢].

---

(١) – على زيعور ، مرجع سابق، ص ص ١٦٤، ١٦٥

(٢) – الخورى يوحنا الحلو، مصدر سابق، ص ص ٢٤٤، ٢٤٥

كيفية قياس الزمن :

ولكن كيف يقيس الناس الزمن ؟ يرى أوغسطين أن حركة الشمس والكواكب والأجرام السماوية ليست هي الزمن كما يزعم الكثيرون. واستنتج فى نهاية بحثه أن الزمن هو عبارة عن امتداد العقل. وما يقيسه البشر هو الانطباع القائم بما تعطيه وتتركه الأشياء أو الأحداث فيهم. ويخلص إلى أن الزمن متغير منقسم، بينما الله – وحده – هو الأزلي الأبدي وغير المتغير.[١]

ويقول : " الزمن امتداد لما أعرف " فنحن نقيس الزمن فنقول إن هذا الزمن يساوي ضعفي ذاك، ولكن لا نقيس المستقبل على الإطلاق، وذلك لأنه مستقبل، كما أننا لا نقيس الماضي الذي انقضى. فالصوت يمكننا قياسه أثناء دويه، وذلك لأنه كان قابلاً للقياس على الرغم من أنه لم يكن ثابتًا، ولكنه يأتي ويذهب، ومن الممكن أن حركته التي تساعد على قياسه وضبط مداه، بينما لا يزال يدوي، لأنه حين ينقطع عن الدوي، يمضي ويستحيل قياسه.

ونحن لا نقيس الزمن إلا أثناء مروره، وذلك من خلال إدراكنا له، فلا يمكن قياس الماضي الذي تلاشى وانتهى، ولا المستقبل الذي لم يأت بعد إلى الوجود، إلا إذا افترضنا أن هناك مقياسًا للعدم، وحين يمر الزمن يمكن أن يقاس، ولكن بعد انقضائه يستحيل كل قياس، ذلك لأنه يصبح غير موجود".

ويعترف : " لا إني أقيس الزمن. دون أن أعرف ما أقيس ، فأقيس الأجسام بواسطة الزمن، ولكن الزمن – ذاته – ألا أقيسه ؟ هل أستطيع قياس حركة جرم، ومداها، والوقت اللازم للانتقال من نقطة إلى أخرى، إن لم أقس الزمن الذي تجرى فيه هذه الحركة ؟ وبم يقاس الزمن ؟ هل بزمن أقصر زمنًا أطول كما نقيس بالذراع لوحة ؟ ويظن الناس أننا نقيس الطويل من الأوقات بالقصير وأن الأول هو ضعف الثاني، مثلما نقيس القصائد بعدد أبياتها وتفاعيلها، وهذه بمقاطعها والمقاطع بطويلها وقصيرها ".[٢]

ويقول أيضاً : " نحن نشعر بأن الزمن لا طول له، وذلك حتى في الوقت الحاضر" ويرفض رأي الأفلاطونيين بأن الزمن هو حركة الشمس والقمر والكواكب، ويرى أن هذا الكلام خاطيء فيقول : فلنفترض توقف الأفلاك عن السير، وبالرغم من ذلك فإن توقفها لا يوقف الزمن، فالزمن لا يندمج مع فالحركة نفسها الحركة – كنقل جسم – ما يمكنها أن تجرى إما أسرع أو أبطأ، إننا نؤدي الحركة نفسها حسب أزمنة متغيرة، فيقول في الاعترافات: " الزمن إذن، ليس حركة جسم ما ".

---

(1) – Stacy Magedanz, MLS, Cliffs Notes On St, Augustine's Confessions , P.71.

(٢) – الخوري يوحنا الحلو، مصدر سابق ، ص ٢٥٩، ٢٦٠.

وعلى الرغم من ذلك فنحن نقول إن الزمن أطول أو ضعف، أو نصف زمن آخر، فلدينا مبدأ لقياسه، وأيضًا امتداد يقاس، ويمكن أن نلاحظ أن هذا المبدأ خارج الزمن وفوقه، وهذا الامتداد ليس حيزاً أو فضائيًا، ولكنه امتداد روحي، فنحن نقيس الزمن في فكرنا، وذلك بسبب أن الفكر يحركه واحده وبعمل واحد ينتظر المستقبل، ويركز على الحاضر، ويتذكر الماضي كما يتضمن الزمن وعيًا وذاكرة منا، مما يذكرنا بنظرية الفيلسوف الفرنسي هنري برجسون – في الديمومة –بالإضافة إلى أن الزمن ذاتي في كل إنسان : فيشعر الإنسان بأن الزمن يجري في داخله. ويفرض الزمن على الإنسان من الخارج، كما أن مسار الزمن لا يؤلف حياة الإنسان ولا ديمومة الحقيقة.(١)

فكل مدى يقاس من أوله وحتى آخره، ولذلك نقول : إن كل صوت لا يزال قائمًا يستحيل قياسه، ولا يمكن قياسه من حيث الطول ولا القصر، فلا يمكننا قياسه تشبيه له بسيط أو مزدوج وهكذا. ويضيف القديس أوغسطين : إننا لا نقيس المستقبل (الذي لم يأت)، ولا الزمن الذي مضى (الماضي)، ولا الذي له بعض الإمتداد ولا ما لا حد له ، إننا لا نقيس الحاضر ولا الماضي، ولكننا نقيس الزمن ذاته. ففي الشعر أيضًا نجد أن كل مقطع طويل يستلزم ضعف الوقت الذي يستلزمه القصير فحين أتلفظ به أثبت صحة كلامي، بالإضافة إلى أن حواسي تشهد بذلك، فأدرك أن الطويل يساوى ضعفي القصير. كما أنه لا يدوي مقطع إلا بعد الثاني. ويضيف أني أقيس بالمقطع القصير المقطع الطويل، ولكن أين هما؟ كلامها دوى ثم راح، ولم يعد لهما أي وجود. ورغم ذلك نقيسهما، وندرك بكل ثقة بأن هذا قصير وذلك مزدوج، من حيث الزمن.

ويرى أوغسطين أن التأثير الذي تتركه الأشياء الزائلة في العقل على الرغم من ذهابها فأقيسه حين يكون موجودًا، وليس الحقائق التي أوجدته ثم انتهت. فهو الذي أقيسه حين أقيس الزمن، وعليه فإما أن يكون هناك زمن أو لَا.

ويتساءل : كيف يستطيع المستقبل أن ينتقص ويتلاشى طالما أنه ليس له أي وجود ؟ وكيف يتضخم الماضي رغم أنه لم يعد له وجود ؟ وأقول إن ذلك يحدث من خلال الفكر حيث تمر فيه كل المراحل، وتتعايش ثلاث عمليات: الانتظار، والانتباه، والتذكار. ويشرح ذلك فيقول إنه يمر أمام الانتظار موضوعه، ويتحول إلى ذكريات.(٢)

---

(١) – على زيعور ، مرجع سابق ، ص ١٨٠.

(٢) – الخوري يوحنا الحلو، مصدر سابق، ص ٢٦٢.

الأبدية هي الطريق نحو فهم الزمان :

للحكم على الزمن علينا اللجوء لمقياس (المطلق)، ويتبنى رأي أفلوطين في التساعيات (الكتاب الثالث 127) بأنه لفهم الزمن علينا تخطيه، ويرى أنه في الزمن سمة الخطيئة والتي جعلها مختلفة المعنى والاتجاه.

والجدير بالذكر أن سبب دراسة القديس أوغسطين لمفهوم الأبدية هو سخرية الوثنيين من خلق الزمن فتساءلوا : "ماذا كان يفعل الله قبل أن يخلق السماء والأرض ؟". ولكن أوغسطين عمَّق وكثَّف هذا السؤال فجعله : " إذا كان قرار الله بالخلق منذ الأزل فلماذا لا يبقى هذا الخلق إلى الأبد ؟ وإذا كان هذا القرار غير أبدي، فكيف يكون الله ذاته ثابتًا وأبديًا؟ فيقول: "إننا إذا قلنا إن الله كان يحيا في بطالة الأجانب الوثنيين : ولماذا لم يبق – كذلك – بلا عمل كما كان قبل خلقه للعالم ؟ فهل حدثت فيه حركة أو إرادة جديدة دفعته وحفزته لخلق الموجودات، وهنا كيف نقول بأن الله خالد وقد ظهرت فيه إرادة جديدة لم تكن موجودة من قبل ؟ بالإضافة إلى أنه إذا كانت إرادة الله قديمة وأبدية، فلماذا لا تكون المخلوقات أبدية وثابتة مثله؟" وكانت إجابته ثابتة مبطلة لأوهام لم تتحرر من الزمن المعروف التقليدي، وأيضًا لم تتحرر من مفاهيم الماضي والمستقبل. وهنا تظهر فلسفته الوجودية وافتراقه الواضح الجذري عن أفلوطين.[(١)]

إن السماء والأرض، وجدتا تهتفان قائلتين : (خلقنا، خلقنا)، وذلك لأنهما تتغيران وتتبدلان، كل كائن غير مخلوق ليس فيه اليوم شيء لم يكن فيه بالأمس، وإلا لتغير وتبدل.

وتهتفان بأنهما لم توجدا بذاتيهما : (خلقنا فوجدنا، وما كنا قبل وجودنا كأننا صنعنا من أنفسنا). ويقول : " لقد خلقتهما أنت يارب : إنهما جميلتان لأنك جميل، وصالحتان لأنك صالح، وموجودتان، لأنك موجود، كما أن قياس جمالهما وصلاحهما ووجودهما بجمالك وخيرك ووجودك وجدتا عاريتين من ذلك كله " [(٢)]

ارتباط وجود الزمان بوجود العالم وخلقه :

بمعنى أن الزمان هو عدد الحركة، وهو متعاقب بالذات، ليس بمعنى أن المتعاقب أزلي لا متناه، لكنه معدود بالضرورة، ومهما فرضنا مقداره فهو محدود، كما أن السؤال : (لماذا خلق الله العالم في هذا المكان ولم يخلقه في مكان آخر؟) وفي الحقيقة إنه ليس هناك

---

(١) – على زيعور ، مرجع سابق، ص ١٨٢.

(٢) – الخورى يوحنا الحلو، مصدر سابق، ص ص ٢٤٢، ٢٤٣.

وجود للمكان دون العالم، ولا وجود للزمان من دونه على الإطلاق، بالإضافة إلى أن المخيلة هي التي تتوهم زمانًا ومكانًا مستقلين عنه، وذلك لأن القول بأزلية العالم حتى مع قولنا بالخلق، مضاد للخلق والوحي، ويرى القديس أوغسطين أن رأي أفلوطين أن الخلق الحر غير وارد، ذلك لظن أن يفترض في الله تقديرًا وحسابًا، وبالتالي فإن هذا الإفتراض يدخل التغير على الخالق، ويجعله ينزل إلى مستوانا البشري المتغير، وتجدر الإشارة هنا إلى أن التقدير والحساب يختلف في كل من الخالق والمخلوق، كما تختلف كافة الصفات والأفعال. ولكن قد يسأل سائل هنا : وكيف كان الخلق إذن ؟ هل أوجد الله الأشياء والموجودات في ستة أيام على التوالي ؟ ويتساءل بعض الناس ماذا كان يفعل الله في الزمن الذي يسبق عملية خلق العالم ؟ ويجيب القديس أوغسطين " بأنه لم يكن هناك زمن من الأساس قبل خلق العالم وذلك لأن الله خلق الزمن نفسه ". (١)

(ما أعظم أعمالك يارب، كلها بحكمة صنعت) "مزمور 3(1–24). " فحكمتك يارب هي البدء : (وفي هذا البدء صنعت السماء والأرض)، كما أنه منذ القدم طعنني جهل القائلين : (ماذا صنع الله قبل أن يخلق السماء والأرض ؟) ثم يردفون بعد ذلك : (إن كان بطالًا، لا عمل له، فلم لم يبق على مدى الأزمان منقطعًا كالسابق عن كل عمل ؟ وإن حدث شيء جديد أو إرادة جديدة لخلق جديد، فلا يبقى مجال هنا للتحدث عن أزلية حقيقية حين تنشأ إرادة جديدة ؟

إن مشيئة الله ليست خليقة، بل إنها في الحقيقة كائنة قبل كل خليقة كانت، وإنه من دونها ومن دون وجودها السابق لا مجال للخلق وذلك لأن مشيئة الله قائمة في جوهره، لأنه لو كان جوهر الله يتجدد بحيث إن لم يكن، يصبح موجودًا، فلا يمكننا أن نعتبره أزليًا، ولو أراد الله الوجود منذ الأزل للخليقة، فلم لا تكون الخليقة ذاتها أزلية ؟

ويقول إن المتحدثين بذلك يجهلون الله وحكمته يا نور العقول، ويجهلون كيف يصنع ما يصنع فيه وبه مشكلتهم إنهم يرغبون في إدراك طعم الأزلية، ولكن قلوبهم فاسدة تتقلب ما بين الماضي والمستقبل.

إن الأزمنة تستمد وجودها من الله وحده، ولو افترضنا وجود زمن سابق لخلق السماء والأرض، يكون هذا الوقت أيضًا من صنع الله، ولا يمكن أن يكون هناك وقت قبل أن تصنع أنت الزمن يا الله.

---

(١) – يوسف كرم، مرجع سابق ، ص42.

فالله يتقدم الأزمنة الماضية وذلك على مدى أزليته وأبديته الدائمة المستمرة الوجود في كل حين يعلو فوق الأزمنة المستقبلة، وذلك لأنها مستقبلة. كما أن الله : (باق كما أنت وسنوك لا تنقضي). فسنوك لا تأتي ولا تذهب على العكس من شئ نحن تأتي وتذهب حتى تنقضي وتنتهي جميعها. كما يقول الكتاب المقدس في ذلك : " سنوك مثل يوم واحد ، ويومك يتجدد كل يوم " يصرح أوغسطين أن المستقبل يطرد الماضي ويتبع، كما أن كليهما يستمدان كيانهما من الحاضر الأزلي، وأن الإنسان لا يمكنه ضبط ووقف فكرة حتى يتأمل في ثبات الأزلية، وأنها لا تحوي لا مستقبل ولا ماض، وأن الإنسان هو الذي يصنع لها حدًا.

ويسخر ممن يسألون : (ماذا كان يصنع الله قبل أن يخلق السماء والأرض ؟)، ويقول إنه لن يجيب عليهم بالرد المضحك : (إنه كان يعد جهنم لمن يحاول إدراك مثل تلك الأسرار)، ولكني سأقول : " لا أعلم " حين لا أعلم بدلاً من السخرية أو إعطاء إجابة مغلوطةً عن مشكلة معقدة غامضة. ولكنه يقول إن كانوا يقصدون بلفظة (سماء وأرض) كل مخلوق، فإني أقول : " إن الله قبل أن يخلق السماء والأرض لم يعلم شيئًا " وإلا لكان كل ما يعلمه مخلوقًا. (١)

نظرية القديس أوغسطين في الزمن يمكن اعتبارها مفهوماً أو تعريفاً مبكراً لرؤية مثالية للزمن. فدخل إلى دراسة متعمقة وبحث في الزمن من خلال تركيز انتباهه على بعض الأسئلة مثل : ماذا كان الله يفعل قبل أن يخلق السماوات والأرض ؟ رفض أوغسطين هذا السؤال، واعتبره هراءً سخيفاً ، وذلك لأنه يعتقد بأنه حين لم يكن هناك خليقة، لم يكن هناك زمن أيضًا. ولكن هذه الإجابة قادته إلى سؤال : " ما الزمن؟ " حين كان هناك فراغ تام، لم يكن هناك زمن، وحينئذ فاعله خالق الزمن، وبالتالي فإن الله هو خالق الزمن عنده، ولكن هذا فقط يجيب عن جزء فقط من السؤال : فالزمن مع الخلق ولكنه ليس مع الله. مما أعطى ذلك شكلاً ما من الخلق (الكون المادي) وذلك ضروري لوجود الزمن. ولكن ما الزمن ذاته ؟ فيقول : " ليس هناك زمن مع الله ". (٢)

وتجدر الإشارة إلى أن أوغسطين ، في القرن الخامس الميلادى ، كان سباقًا في القول بفكرة أن الزمن لا يمتد إلى الوراء إلى الأبد، ولكنه خلق مع خلق الكون، ونستنتج من ذلك أن هناك نظيراً علمياً للتعاليم المسيحية عن الخلق من العدم.(٣)

---

(١) – الخوري يوحنا الحلو ، مصدر سابق ، ص ص ٢٤٧، ٢٤٨.

(2) – Friedel Weinert , The Scientist As A Philosopher: Philosophical Consequences Of Great Scientific Discoveries, Springer Press , Germany, 2005, P. 147.

(٣) – عاطف العراقي، ثورة النقد في عالم الأدب والفلسفة والسياسة، مكتبة جريدة الوفد، دار الوفاء ، الأسكندرية ، ٢٠٠٠م ، ص٥٥.

الديمومة الحقيقية (Durée) :

يرى أوغسطين أن الإنسان يشعر بأن الزمن يشابه السجن بالنسبة له، ولذلك فإن جهود الإنسان تتجه نحو التحرر من قيد سجن الزمن. واعتبر أفلوطين الزمن تقهقر الجوهر الإلهي للنفس، وإن السبيل لتحرر النفس من الزمن ان تصعد الطريق الذي سلكته في هيولتها وتعود بها إلى مبدئها وأصلها، والذي هو الكائن الأسمى، وإن النفس ، في صعودها ، تجد أن الزمن وهم محض من ضمن أوهام وعيها وإدراكها. بينما نجد العكس عند أوغسطين فالزمن – عنده – هو عبارة عن حقيقة واعية، وإن الخطيئة ليست ظاهرة وراثية خالية من الخطأ والمسئولية على حد السواء، ولكنها حادث أخلاقي محمل بالخطايا، كما أن هزة الخطايا تولد في النفس عذاب الضمير الناتج عن الماضي، والقلق من المستقبل. ولذلك هناك وسيلة واحدة لتحرير النفس من عبودية الزمن، وهي أن ترى في الزمن حقيقة اختبار وخلاص ويسيطر على انفعالاتها وأهوائها والتي تضعف وتقلل من طاقتها، وتتجه للصعود الروحاني لتكون فوق الحوادث والأشياء، وتكون النفس ثابتة مستقرة في زمن حاضر من الدعاء والتأمل.

ويرى أن الماضي : هو كل ما لم يعد موجودًا بعد الآن، والمستقبل : هو ما لم يأت ولم يصل بعد، أما الحاضر : فبسبب سرعته ، يصعب علينا التقاطه وإمساكه.

ورغم أننا نقول (ماضٍ طويل) و(مستقبل مديد)، وما يشبه ذلك من تعابير، ولكنها كلمات طائشة وغير دقيقة على الإطلاق : وذلك لأن الماضي لم يعد موجودًا، ولن يعود أبدًا، والمستقبل غير موجود بعد، وبالتالي فلن يكون لهما طول، وأيضًا لحظة الحاضر مثلها بلا طول، لأنه لحظة غير متجزئة وغير ممتدة.

ونلاحظ من ذلك ظهور الزمن كشيء غير دائم، وغير ثابت، ومترجرج، ورغم أنه يبدو لنا شيئًا مستمرًا ومتصلًا، فإنه يفرق الإنسان، ويشتته، ويسرع به إلى العدم.

مصدر الزمن :

ينتج الزمن عن الأبدية وهو مجرد إشارة أو شكل من أشكال الأبديه فنجد أن الزمن يتحرك، ويجري، وتبقى الأبدية ثابتة، والزمن إما أن يكون الأمس أو اليوم أو الغد، بينما الأبدية هي (اليوم هذا)، وذلك بصورة أزلية أبدية مستمرة. والسنون تعرض وتنطوي، وكما يقول الكتاب المقدس : " وأنت يارب في البدء أسست الأرض، والسماوات هي عمل يديك هي تبيد، ولكن أنت تبقى، وكلها كثوب يبلى، وكرداء تطويه فيتغير، ولكن أنت أنت، وسنوك لن تنفى ". (رسالة بولس الرسول إلى العبرانيين 1: 10–12).

ويتابع أوغسطين إن سنوات الله لا تأتي ولا تذهب، وذلك على العكس من سنوات البشر، فسنوات الله ثابتة، وليست سوى يوم واحد، والله هو خالق كل الأزمنة. وإن هناك فترة لم يكن الزمن موجودًا فيها، وإن الزمن مخلوق مثله مثل العالم، وقد بدأ الزمن يجري في اللحظة التي اختارت المادة أن تتحرك فيها بتأثير الصورة.[١]

طبيعة الزمن :

في فلسفة الزمن للقديس أوغسطين نجد مقولته الشهيرة : " ما الزمن إذن ؟ إني أعلم ما هو طالما لم يسألني أحد، ولكن إذا سئلت عن ذلك وحاولت أن أجيب فإني أرتبك ".

ولقد انتقلت حيرته هذه عبر القرون كما شكَّلت تأملات وأفكار العديدين. ولذلك نجد التعبير المؤقت للتجربة الجبرية الملزمة للزمن، وللإمكانية الكاملة المطلقة للحديث عن الزمن من أي مكان، ولكن من داخل البنية أو التركيبة الحية. ونجد أن الزمن أو الوقت يستعصي على التعريف في اللغة (اللغوي) ولكنها كلها منتشرة في تجربتنا. وربما يكون ذلك هو المعضلة الرئيسة المركزية لزمن الحاضر الذي يعد (مؤقتًا)، كما يبدو أنه خاضع للبحث والفحص والدراسة، وكيف نفهم شيئاً ما والذي يشكل البنية الأكثر حميمية لتجربتنا ونحن لا نستطيع الهروب من ديناميكيتها والتي هي هويتها الأساسية، فنحن ربما نصر، ونثابر، ونستمر في سوء الفهم حتى إذا كانت تشكلنا ؟ [٢]

ما هو الزمن ؟ ليس هناك من يمكنه إعطاء تعريف دقيق ومحدد للزمن فعلًا، فكل الناس يشعرون بالزمن، وبالرغم من ذلك، فلا أحد يعرفه على وجه الدقة والتحديد رغم أنه يجري بشكل مألوف للغاية على كل الألسنة، ويقول فى تعريفه للزمن : " أنا أعرف الزمن طالما لم يسألني أحد عنه، ولكني أكف عن معرفته إذا شئت أن أشرحه لمن يسألني عنه"[٣].

نلاحظ اهتمام أوغسطين بهذه المسألة بالتحديد وبدراستها، ويرى أننا نتحدث عن زمن ماض، وزمن حاضر ، وزمن المستقبل، بينما ، فى الحقيقة ، إن الزمن الماضي قد توقف وانتهى وتلاشى تماماً ولم يعد موجودًا، أو أنه قد توقف عن الوجود. أما زمن المستقبل فإنه لم يأت ولم يحضر بعد، ولكن الحاضر – وحده – فحسب الذي يوجد، ويعد موجوداً، وكائن فعلاً. والجدير بالإشارة هنا أن اللحظة الحاضرة لا يمكن أن يكون لها أي امتداد، أو دوام، أو استمرارية زمنية على الإطلاق، وهذه نقطة فى غاية الأهمية.

---

(١) – على زيعور، مرجع سابق، ص ص ١٧٩، ١٨٠.

(2) – Russell West, Temporalities, Pavlov, Routledge Taylor And Françis Group, London and New YorK ,2013, P. 29.

(٣) – على زيعور ، مرجع سابق، ص178.

ولكن إذا كان هذا حقيقي، فكيف يمكن لنا أن نتحدث عن التاريخ؟ أو كيف يمكن للأنبياء التوقع والتنبؤ لنا بالأحداث المستقبلية ؟ فالذاكرة البشرية تحتفظ بداخلها ، وتحفظ لنا صوراً من الأحداث الماضية. ربما البعض يستطيع التنبؤ أو توقع المستقبل من خلال قراءة العلامات المحتملة لما سوف يحدث.[١]

يعتبر القديس أوغسطين أن مفهوم الامتداد هو جوهر تفكيرنا في الحالة الزمنية لوجودنا. بمعنى أن فهمنا للزمن ناتج من فكرنا لواقعية الزمن غير المعروفة لنا سوى من خلال حالتنا الذهنية الخاصة بالتذكر والتوقع. كما أنه ، حتى نتمكن من معرفة الوقت المطلق ، يجب علينا الخروج من حياتنا العادية الواقعية نحو الأبدية. ولكننا – كبشر – عاجزون عن فعل ذلك بالطبع، لذا فنحن مضطرون للتسليم بغرض ومغزى حياتنا من خلال عملية ذهنية نصل بها إلى ذلك من خلال امتداد العقل في البحث عن الزمن.[٢]

يقول القديس أوغسطين : " ما الزمن ؟ هل يمكننا ببساطة أن نوضح ذلك ؟ أو نفهمه، ونحاول تفسيره، أو نضع كلمة واحدة توضحه في الحقيقة؟ ونحن حين نتحدث نشير إلى أكثر مما نعلمه ونألفه، مما تعودنا عليه عن الزمن باللغة الدارجة. ولذلك فنحن – بالتأكيد – نفهم شيئاً ما حين نتحدث عن الزمن. وندرك أيضًا حين نسمع عنه من الآخرين. ما الزمن إذن ؟ إذا لم يسألني أحد عنه، فإنني أشعر بأنني أعرف الإجابة. ولكن إذا وضع السؤال، وبدأت في التوضيح فإني أدخل في المجهول وأتحير وأرتبك. ولكن الآن فأني استطيع القول بثقة. إنه إذا لم يكن شيئ يمر لم يكن يوجد الماضي. وأنه إذا لم يكن شيئًا آن لم يكن ليوجد زمن المستقبل. وإذا لم يوجد شيء، لم يكن هناك زمن حاضر. هناك زمنان فحسب: الماضي والمستقبل، وينحصر الزمن في زمنين فحسب، وهما الماضي والمستقبل. الماضي لم يعد موجودًا بعد الآن، والمستقبل لم يوجد بعد. والآن ثانية إذا كان الحاضر حاضراً، أى موجودا دائمًا، ولم يذهب إلى الماضي. فالزمن حقيقة لا يمكن أن يوجد، ولكن كان أبدية، مما يصل بنا إلى أنه إذا كان الزمن الحاضر يأتي فقط للوجود، لأنه يسافر إلى الماضي. فهل يمكننا حقًا أن نقول إنه يوجد على الإطلاق ؟ مما يتركنا أمام الاستنتاج أن الزمن هو شيء حقيقي كفاية للتعبير عنه في كلمات، ويعرف من خلال الارتحال فى الأبدية، أو الأزلية ".

---

(1) – Stacy Magedanz, MLS, Cliffs Notes On St, Augustine s Confessions , P.71.

(٢) – قيس ماضي فرو، المعرفة التاريخية في العرب، مقاربات فلسفية وعلمية وأدبية ، ط1، المركز العربي للأبحاث ، بيروت، لبنان،، ٢٠١٣، ص٥١.

وهذه الفقرة توضح تحليل أوغسطين للزمن. فيركز كل المشكلة حول الحاضر، وبالأدق حول سيكولوجية الإنسان، على اعتبار أننا مخلوقات أو كائنات أخلاقية. فالزمن – دومًا – ما يجعلنا نفكر في الأزلية. على اعتبار أن كلاً من الزمن والأبدية بمثابة الإخوة، ونحن نعلم أنهما كلاهما يبدوان متطابقين، ولكننا أعطيناهما هذه الأسماء المختلفة والهويات المتفرقة. وهكذا فإن كل شيء يدور حولنا كبشر، وكيف تصفنا هذه النشاطات وماذا تعني لنا ؟ فالنفس قد أعطى لها إدراك وقياس فترات الزمن.

المشكلة التقليدية للزمن بأكملها من وجهة نظره تتلخص في أنها – ببساطة – تجعلنا قريبين للغاية من ذواتنا. وربما يكون الزمن ذاته بأكمله بمثابة لغة للمعنى بدءاً من الظواهر المنفصلة المتميزة التي تضعها لغة المعنى. وذلك على اعتبار أن كل اللغات البشرية المتحدث بها تعد فى الحقيقة لغات للمعنى.(١)

ربط القديس أوغسطين بين كل من الزمان والوعي، وذلك أن التباس الزمن هو أيضًا التباس للذات.(٢)

المدة الزمنية التي خلق بها الله العالم :

لا تتضمن عملية الخلق أي مفهوم للديمومة أو لحقبة معينة من الزمن وذلك لأن الله قد خلق كل شيء معًا وبشكل متزامن. بالإضافة إلى قصة الستة الأيام للخلق الواردة في سفر التكوين يجب أن نفهمها على أنها يوم واحد وليس ستة أيام أو برهة واحدة ، أما الحديث عن أن أيام الخلق هي ستة أيام فهو تعبير مصور لتسهيل الفهم على المخيلة البشرية الضعيفة القاصرة ، كما أنها ليست أيامًا مثل أيامنا نحن التي نعرفها من ليل ونهار، وذلك أن الله لا يخلق كما يخلق البشر، ولا يستريح في اليوم السابع كما يستريح البشر.(٣)

فيسأل : (ماذا – إذا– يكون الزمن ؟) فأنا أعلم ما هو إذا لم يسألني عنه سائل، أما إذا أردت شرحه لمن يسأل، وجدتني جاهلًا به). ويرى أنه لا الماضي ولا المستقبل موجود وجودًا حقيقيًا، ولكن الموجود الحقيقي هو الحاضر فحسب، والحاضر هو لحظة، كما إنه يستحيل قياس الزمن إلا أثناء طريقه إلى الزوال، وعلى الرغم من ذلك نجد أن الزمن

---

(1) –Saint Augustine Of Hippo : An Intellectual Biography, Miles Hollingworth, Bloomsbury, London, Great Britain, 2013 ,P. 69.

(٢) – بول ريكور، الزمان والسرد الحبكة والسرد التاريخي، ترجمة : سعيد الغانمي وفلاح رحيم، راجعه عن الفرنسية : جروج زيناتي، ط١ ، الجزء الأول، الكتاب الجديدة المتحدة ، بيروت، لبنان، ٢٠٠٦، ص ٣٦٠.

(٣) – على زيعور ، مرجع سابق، ص ١٦٣.

الماضي والزمن المستقبل حقيقتان، ونجد أنفسنا هنا أمام تناقص والمخرج منه عن القديس أوغسطين هو القول بأن الماضي والمستقبل كليهما لا يكونان في الفكر إلا باعتبارهما حاضرًا، إذ إن (الماضي) لابد من توحيده بالذاكرة، و(المستقبل) بالتوقع، بالإضافة إلى أن الذاكرة والتوقع كليهما حقيقتان قائمتان في الحاضر.

يصرح أوغسطين بأن هناك ثلاثة أزمنة رئيسة:

١ – حاضر الأشياء الماضية.

٢ – حاضر الأشياء الحاضرة وهو : (الرؤية البصرية).

٣ – حاضر الأشياء المستقبلة وهو : (التوقع).

وبالتالي فإن القول بأن هناك ثلاثة أزمان: الماضي والحاضر والمستقبل، هو كلام غير دقيق على الإطلاق. ويعلم بأن هذه النظرية لم تحل له كافة المشكلات الخاصة بالزمن، فيقول : " إن روحي تتحرق رغبة في معرفة هذا اللغز المعقد ".

ويقول أيضًا : " إني أعترف لك يا إلهي بأني الآن أجهل حقيقة الزمن " ، ويقترح أن الزمن ذاتي، قائم داخل العقل الإنساني الذي يتوقع ، ويرى ، ويتذكر ، وبالتالي ينتج عن ذلك استحالة وجود زمن دون كائن مخلوق. وبالتالى فإن الحديث عن (زمن) قبل عملية الخلق ليس له أي معنى على الإطلاق.(١)

يخلق الإنسان مفطورًا على الأزمنة الثلاثة جميعًا : الماضي، والحاضر، والمستقبل، ولكن نجد أن طبيعة التجربة الحياتية تجسد مقولة القديس أوغسطين القائلة بأن : " هنالك حاضر للأشياء الماضية، وحاضر للأشياء الحاضرة، وحاضر للأشياء المستقبلية ".(٢)

ويرى أن المستقبل وعلى الرغم من أنه لم يبدأ بعد، ولكن انتظاره قائم بقوة في الفكر، كما أن الماضي رغم تلاشيه وانتهائه، ولكن تذكاره لا يزال عالقًا في الفكر، بالإضافة إلى لا أحد يستطيع أن ينكر أن الحاضر غير ممتد طالما أنه يعتبر نقطة هاربة فارة من الزمن.

بينما الباقي يمثل الانتباه الذي يقود نحو اللاوجود الأشياء التي تمر فيه. ونستخلص من ذلك أن المستقبل ليس طويلًا، لأنه لا وجود فعلى له، والمستقبل الطويل هو انتظار المستقبل الذي نظنه طويلاً، والماضي أيضًا ليس طويلاً لأنه لا وجود له، والماضي الطويل هو تذكار الماضي الذي نتصوره طويلاً.

---

(١)– برتراند رسل، مرجع سابق، ض ٨١.

(٢) – علي شاكر الفتلاوي، سيكولوجية الزمن، ص ٥٥.

ويقول : " إني أوجد ذاتي من الأيام الماضية، وأتعلق بوحدتك يا الله ناسيًا كل ما ورائي، مطمئنًا إلى المستقبل الآتي، مهتمًا فقط بالأشياء الحاضرة " ويضيف أن كلمة (البتة) لا تعني شيئًا على الإطلاق، حيث لا مكان فيها للزمن، فلم يكن هناك زمن قبل الخليقة وأنت يا الله سابق للأزمنة، وخالقها جميعًا، وأنه لا زمان ولا خليقة لم يأخذا من أزلية الله.[١]

الزمن وليد للانقطاع المتواصل بين ثلاثة مظاهر للحاضر، التوقع والذي يسميه حاضر المستقبل، والتذكر الذي يفيد حاضر الماضي، والانتباه والذي هو حاضر الحاضر. ومن هنا ينتج تذبذب الزمان وتقطعه المتواصل، ويعرف الزمان بأنه : (انتفاخ الروح) (Distantio Animi) وذلك لأنه يجمع في مقابلة دائمة بين كل من الطبيعة المتحولة للحاضر الإنساني وبين ثبات الحاضر الإلهي والذي يضم ويشمل في طياته الماضي والحاضر والمستقبل في وحدة وفصل خلاق.

ويمكننا القول إن التضارب يطغى على التوافق عند القديس أوغسطين، ومن هنا يظهر بؤس الوضع البشري عنده.[٢]

فالله هو صانع كل الأزمنة، كما أنه فوقها، ويستحيل ألا يكون هناك وقت في زمن من الدهر. وبالتالي فإنه لا يوجد وقت لم يصنع فيه شيئًا، لأنه صنع الوقت ذاته، بالإضافة إلى أنه ليس هناك وقت يتساوى مع الله في الأزلية، لأنه دائم الوجود.

ويتساءل القديس أوغسطين : ما الزمن إذن ؟ ومن يستطيع تفسيره وشرحه بإيجاز وسهولة ؟ ويُكون عنه فكرة واضحة من خلال المفردات والألفاظ اللغوية ؟ وهل هناك في أحاديثنا فكرة أكثر إلتصاقًا بنا من فكرة الوقت ؟ ويعود فيقول : " فما الزمن إذن ؟ وإذا لم يسألني أحد عنه، فأنا أعرفه ؟ أما أن أشرحه، فلا أستطيع. ومع ذلك يمكنني التأكيد، على أنه لو لم يكن شيء ينقضي، لما كان وقت يمضي ويمر، ولولا الماضي لما كان هناك مستقبل، ولولا الماضي لما كان هناك حاضر".

الماضي مضى والمستقبل آت، والحاضر لو ظل حاضرًا دومًا دون أن ينقص ويتلاشى في الماضي لكان أزلًا، وليس وقتًا، وعلة وجود الحاضر الوحيدة هي ألا يكون بمعنى أننا نقول إن الوقت موجود لأنه يسير نحو اللاوجود. وعلى الرغم من ذلك فإننا نتحدث عن وقت طويل وآخر قصير، ولا نقول ذلك إلا عن الماضي والمستقبل فحسب.

---

(١) – الخوري يوحنا الحلو، مصدر سابق ، ص ٢٦٤.

(٢) – بول ريكور، الوجود والزمان والسرد، ترجمة وتقديم : سعيد الغانمين ، ط١ ، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان ، ١٩٩٩، ص ٥٣.

فالماضي الطويل والمستقبل الطويل بالنسبة لنا هو مائة عام على سبيل المثال إما في الماضي وإما في المستقبل.

ويتساءل كيف يمكن أن نصفه بالطول أو بالقصر ما هو غير موجود، ذلك لأن الماضي قد مضى بالفعل، والمستقبل لم يأت بعد، وبالتالي لا يجوز لنا القول بأن (الزمان طويل) بل نقول : (كان الماضي طويلًا) وسيكون المستقبل طويلًا.(١)

الوقت الحاضر هو الوحيد الذي يستحق أن يسمى (طويلاً)، وهو ينحصر في نهار واحد غير حاضر بكليته، فساعات النهار والليل أربع وعشرون ساعة، وهي بالنسبة إلى الأولى مستقبلة، وإلى الأخيرة ماضية. والساعة المتوسطة لها سابقات ولاحقات، كما أن الساعة – أيضًا – مؤلفة من أجزاء هاربة، وكل ما ينفصل عنها يمضي ويتلاشى، وما لا يزال فيها مستقبل، فالحاضر يشبه نقطة في الزمن لا تتجزأ، وهي سريعة الانتقال من المستقبل إلى الماضي، حتى إننا لا يمكن أن نعطيها مدى وإلا لتجزأ هذا المدى إلى حاضر ومستقبل بينما الحاضر ليس له مدى. والمستقبل نقول عنه إنه (يكون طويلًا)، فالطول إذًا لم يكن طويلًا إلا من خلال انتقاله من المستقبل الذي لم يأت بعد إلى الوجود، ثم يصبح حاضرًا، وبالتالي يقبل الطول. والحاضر ذاته لا يمكن أن يكون طويلاً.

ويؤكد أوغسطين على أنه يبحث ولا يؤكد، ويطلب من الله المعونة والمساعدة والإرشاد للحقيقة. ويقول إن الماضي والمستقبل موجودان بدليل أن الذين تنبأوا عن المستقبل إن لم يكن موجودًا بالكلية فأين رأوه ؟ فلا أحد يمكنه أن يرى ما هو غير موجود، كما أن جميع الذين يرون الماضي لم يكونوا يستطيعون أن يكونوا محقين في أخبارهم أن يتخيلوا الأحداث التي يسردونها. لأنه إذا كان الماضي عدماً ومطلقًا، فمن المستحيلات مشاهدته. وإن كان الماضي والمستقبل موجودين بالفعل، فأين مكانهما ؟ ويقول إنهما حاضر، لا ماضٍ ولا مستقبل، وذلك لأنه إن كان المستقبل فيه مستقبلًا، فلا وجود له، وإن كان الماضي ماضيًا فلا وجود له، وبالتالي لا وجود لهما إلا بصفتهما حاضرين. (٢)

طبيعة الله الأزلية الأبدية تختلف تمامًا عن طبيعة الإنسان، ففي محاولة تعريف الزمن باعتباره الامتداد لنفس العالم، اتجه القديس أوغسطين إلى إنكار وجودها. ويرى أن الماضي لم يعد موجودًا بعد الآن، والمستقبل لم يأت بعد، والحاضر إذا كان موجودًا بالفعل فهو أبدية استنادًا إلى ثباته وعدم تحركه. وحتى يتجنب الإستنتاج اللامعقول أن الزمن يمكن تأكيده فقط

(١) – الخوري يوحنا الحلو، مصدر سابق ، ص ص249 ،250.

(٢) – المصدر السابق نفسه ، ص252.

من خلال ميله للتلاشي والذوبان. كما أن أجزاء الزمن الثلاثة ترتبط بعالم التجربة النفسية مثل الذاكرة، والإنتباه والتوقع. وهذه الحاله المؤقتة في الوعي والإدراك الإنساني تلهي الإنسان وتشغله عن تأمل الله. بالإضافة إلى أن سعى القديس أوغسطين الصوفي الروحاني قاده إلى إنكاره قيمة معنى حدود الظواهر الزمنية. السؤال القائم حول تبعية الزمن للنفس أو العقل اهتم به أرسطو وأفلوطين وفلاسفة قدماء آخرون، ونلاحظ أنهم احتلوا مكانًا رئيسًا في نظرية أوغسطين. وفي فترة العصور الوسطى قام نقاش وجدال لفلاسفة العصر الوسيط حول الطبيعة مثل : القديس ألبيرت الكبير ، وتوما الأكويني. امتزج رأي متردد تجاه الزمن وبرز في نظرية القديس أوغسطين التاريخية. فقد أظهر التاريخ المقدس الحكم المؤقت للتدبر والعناية الإلهية. الزمن هو الوسيط أو المتوسط في عملية الخلاص أو فداء البشر الروحاني. وأيضًا لا يزال الزمن التاريخي يأخذ مساره الطبيعي من خلال طريق مباشر، كما أنه يشمل ظهور الخطيئة ، والمأساة الإنسانية البشرية.[١]

ويصرح بالقول إننا عندما نسرد قصة ماضية، فالحقائق التي تلاشت لا تصدر عن ذاكرتنا ولكنها تترك في حواسنا وأفكارنا ما يشبه آثار الأقدام، وحين نتذكرها ونتحدث عنها، نرى صورتها حية في الحاضر الذي لا يزال في ذاكرتنا.

ولكن ماذا عمن يخبر بالمستقبلات ؟ وهل تدرك النفس مسبقًا الصور الموجودة لأشياء لا وجود لها ؟ فحين نتأمل في أعمالنا المستقبلية يتم هذا التأمل في الحاضر، ولكن الأعمال ذاتها تظل في اللاوجود، ذلك لأنها مستقبلة، ولكن حين ينشرع في تنفيذها يدخل العمل في حيز الوجود، وينتقل بالتالي من المستقبل إلى الحاضر. فحين يقول الناس إنهم يرون المستقبل لا يعني ذلك أنهم يرون الأشياء التي ليس لها وجود على الإطلاق (المستقبلية)، ولكنهم يرون علل الأشياء وبوادرها الموجودة أمامهم، مما يساعد العقل على التكهن وتوقع المستقبل. فهذه الأفكار المستقبلية موجودة، بالفعل ولهذا يراها المتحدثون عن المستقبل في أنفسهم، ويبرهن على كلامه هذا بمثال حين نتأمل الصباح الباكر ونتوقع طلوع الشمس القريب. فما أتامله حاضر أو الذي أتوقعه مستقبلاً، والذي هو طلوع الشمس المستقبل الذي لم يحدث بعد ولم يأت بعد، ولكن لولا الصورة المرتسمة في ذهني عن طلوع الشمس، ما استطعت توقع طلوع الشمس.

فأنا أرى طلوع الفجر وطلوع الشمس كليهما وكأنهما حاضران في ذهني، ولذلك أتوقع طلوع الشمس. إذن يمكننا القول بأن المستقبل ليس حاضرًا، وبأنه إن كان حاضرًا فليس له

---

(1) – Simaon Cohen,.P.44.

وجود، وإن لم يكن موجودًا، فلا يمكن رؤيته، ولكن يتوقع ويبشر به، وذلك بفضل الحقائق الحاضرة الموجودة بالفعل والملحوظة.

ويرفض أوغسطين الرأي القائل بأن الوقت هو حركة الشمس والقمر والكواكب، ويرد عليه بأنه إذا كان الأمر كذلك، فلم لا يكون الوقت حركة الأجرام كلها.

كما نجد في السماء علامات من كواكب ومشاعل سماوية تدل على الأيام والفصول والسنين، وهذا مؤكد تمامًا لاشك فيه البتة. ويصرح بأن ما يريد معرفته هو جوهر الوقت وطبيعته الخاصة، الوقت الذي نقيس من خلاله حركات الأجرام السماوية. ويضيف أن النهار ليس بداية، وذلك لأن النهار قائم حتى لو بقى للشمس ساعة من الزمن، وليس كمال دورتها، لذلك لن أسأل عن النهار، ولكن الوقت الذي نعتبره قياس الدورة الشمسية.

ويصرح بكل تأكيد بأن الزمن ليس هو حركة الأجرام السماوية، ولكن الوقت هو نوع من الإمتداد.[١]

نظرية القديس أوغسطين في الزمن تعد نظرية فلسفية ولاهوتية في الوقت نفسه. لاهوتيًا من خلال حديثه عن عملية الخلق في فترة زمنية مقدارها ستة أيام، ونوعية الخلق في كل يوم من تلك الأيام الستة، ويظهر ذلك بوضوح أيضًا في خلق الإنسان، وقصة سقوط أبوينا الأولين آدم وحواء، وأيضًا في خلق الملائكة والأجسام النورانية، وخلقها وخلق الأجسام المادية الأرضية. وفي الاعترافات يصرح أنه حين ننظر إلى الماضي نجد صورًا للأحداث الماضية والتي لم تعد موجودة بعد الآن، وأن الإنسان يبحث عن نفسه في ذاكرته أولاً، ثم يجد قطعاً وأجزاءً من العالم.[٢]

يميز أوغسطين بين الحياة الدنيا المؤقتة والأبدية الأزلية الإلهية، فكلمة الله الخالق أبدية وصامتة، بينما سمعنا نحن لتلك الكلمة مؤقت ، ويقول : "إن الزمن شائع"، وذلك لأن الكلمات التي يمكن سماعها (تتلاشى وتمضي بعيدًا). بينما كلمة إلهي تبقى وتستمر إلى الأبد فوقنا، وهكذا يوضح الفرق بين : ما هو دنيوي مؤقت وما هو إلهي أزلي وأبدي.[٣]

---

(١) – الخوري يوحنا الحلو، مصدر سابق ، ص ٢٥٨.

(2) – Andrea Nightingale, Once Out Of Nature : Augustine On Time And The Body, Library Of Congrers , U.S.A. , 2011, P.29.

(3) – , Hans George Moeller , The Philosophy Of The Daodejing, Columbia University Press, New York, U.S.A, 2006, P.118.

يستخدم أوغسطين ثلاثة نشاطات لفظية لغوية في تحليله لمدة الزمن العقلي: صنع أو عمل صوت، إلقاء أو سرد ترنيمة أو ترتيلة، وغناء أو إنشاد أغنية. ولكن لابد أن نعتمد على الطرق التي يعمل بها كل من العقل والجسم في هذه الأنشطة. فنجد أن اللفظ أو التعبير المادي للصوت أو للأغنية يحيط ويغمر العقل في الحاضر العابر المجتاز الذي يمر على الأرض من خلال التركيز على الدور الذي يؤديه الجسم في نظريته. ونستطيع أن نرى التفاعل بين كل من الزمن الأرضى والزمن النفسى على حد سواء. وأساسًا فنحن نجمع بين شيخوخة الجسم في الزمن الأرضى مع انتفاخ العقل في الزمن النفسي.(١)

يرى كويسبيل أن نظرية القديس أوغسطين الشخصية في الزمن ، على اعتبار أنه مُنتَج من إنتاج الذاكرة ، تتسق مع أفكاره الأخرى كافة، بالإضافة إلى توكيد وتشديد قوي على جوهر الأشياء. ونجد أنه قد ركز كل اهتمامه على تفسير ودراسة معنى الزمن وطبيعته ومفهومه.(٢)

السؤال عن التجديد أو الحداثة يأتي فقط حين يكون لدينا مفهوم للزمن، والذي يسمح لنا بأشياء جديدة تحدث في المقام الأول. ويقول : "إن كل كائن مخلوق يحيا في الزمن ولكن يكون مؤقتًا بالضرورة. كما لو كان جوهر الزمن". ونحن نستطيع أن نصنع بداية جديدة في الوقت طالما كانت البدايات الجديدة تفترض مسبقًا، تقتضي أوتستلزم حركة من بداية ما وحتى نهاية ما. بينما يتحرك كل شيء في دورات للزمن أبدية، على اعتبار أن كل الطبيعة باستثناء الإنسان لا يطرأ عليها شيء جديد على الإطلاق : " فالتجديد لا يمكن أن يحدث في دورات ".(٣)

وذلك لأنه : (لما كان الله لا يتغير أبدًا وإذا كان الزمن لم يتغير أبدًا، فلا يمكن أن يكون هناك زمن أي سوف لن يكون هناك زمن) الاعترافات : الكتاب ١١: ١٤. ويقصد أنه يكون هناك زمناً فقط حين يكون هناك تغيرات جدية فيقول : إذا لم يكن هناك شيء ما يتلاشى، لن يكون هناك زمن ماضي. وأنه لم يكن هناك شيء سيحدث، لن يكون هناك زمن مستقبل، وإذا لم يوجد شيء لن يكون هناك زمن حاضر، وهكذا فإن الزمن يبدو أنه يكمن في تغيير الأحداث، أو بكلمات أخرى في العبور من الأحداث المستقبلية إلى الأحداث

---

(1) – Andrea Nightingale, Once Out Of Nature , P.35.

(2) – Michael Tippett , Tippett On Music, Edited By ;Meirion Bowen, Clarendon Press, Oxford Univercity, Great Britain , 1995, P.228.

(3) – Stephan Kampowski ,Arendt, Augustine And The New Beginning : The Action Theory And Moral ,Thoughts Of Hannah Arendt In The Light Of Her Dissertation On St : Augustine, , Library Of Congrers, U.S.A., 2008, P. 190.

الماضية، ولكن إذا كان الجانب الحاسم (Crucial Aspect) من الزمن هو العبورأو القفز من المستقبل إلى الماضي، فأين يوجد الزمن فعلاً ؟ فالماضي لم يعد موجودًا بعد الآن، والمستقبل لم يوجد بعد، لذلك ربما الزمن الوحيد الذي يوجد فعلًا هو الحاضر، ولكن متى الحاضر؟ كما تخرج الكلمات بتدفق وانتظام وتتال من فم المتحدث، فإن كلماته تبقى وتنحسر في الماضي بشكل لا رجعة فيه، وذلك بمجرد أن يخرج ويلفظ المتحدث الكلمات. ويرى أن الحاضر ليس له امتداد زمنى.

إننا نستطيع قياس الزمن، فنحن مدركون وواعون لوحدات الزمن، أو فتراته، ودوراته. ولكننا لا نستطيع قياس الماضي، وذلك لأنه انقضى وتوقف وانتهى وتلاشى تماماً عن الوجود، كما أننا أيضًا لا نستطيع قياس المستقبل، لأنه لم يصل إلينا أو لم يأت بعد. وبالتالي يمكننا القول إننا نستطيع إدراك الزمن وقياسه فقط عندما يمر (الاعترافات : ١١-١٦)، ولكن كيف نستطيع أن نقيس الحاضر إذا لم يكن له مدة (امتداد) ؟ ويرفض أوغسطين رأي أفلاطون بأن الزمن ينشأ ويتشكل من خلال حركة الأجسام السماوية، وذلك لأن الزمن يستمر حتى حين لا يكون هناك مثل تلك الحركة، ويقبل رأي الكتاب المقدس في (رسالة يهوذا الرسول : ١٠-١٣). فنحن دائمًا ما نقيس حركة الأجسام بالزمن ولكننا لا نقيس الزمن بالإشارة إلى حركة الأجسام بما فيها الشمس ، ويبدو أنه لدينا مشكلة : فنحن لا نستطيع أن نقيس المدة الزمنية للحظات في الماضي، أو المستقبل بسبب أنها إما انتهت، أو لم تصل بعد، ولا نستطيع قياس الحاضر بسبب أنه ليس فيه مدة زمنية. ولكننا الآن نقيس الزمن. وكان القديس أوغسطين محقًا فخلال حياته كان الزمن يقاس من خلال استخدام الساعات المائية ، والظلالية، الساعة الميكانيكية لم تكن اخترعت بعد حتى ألف سنة أخرى من بعده.

وصل أوغسطين إلى استنتاج أن الزمن يقاس بداخل عقل كل شخص - على حده - قياس الزمن ليس موضوعياً، فالأشياء والأحداث تمر من المستقبل إلى الماضي، وما يقاس فعلًا هو الانطباعات التي تتركها الأشياء والأحداث في عقل الشخص المدرك الواعي. (١)

كما أن الفرق عميق للغاية، فبالنسبة إلى الله فإن : " الأزمان ليست مشاركة للأبدية معك، ولا أي مخلوق أيًا كان، حتى إذا كان هناك مخلوق فوق الزمن " ، بالإضافة إلى أن الأبدية تسير جنبًا إلى جنب مع الحقيقة الأبدية ، والتي هي ليست مؤقتة، وكل شيء مؤقت أو زمني يعد خطأ أو ضلالاً، ويصنف أن الطريق من الخطأ إلى الحقيقة هو - أيضًا - الطريق من الزمن المؤقت إلى الأبدي الأزلي. فالله هو البداية والأبدية، وهو بداية كل ما هو

---

(1) - Friedel Weinest , P; 148.

زمني ووقتي ، وبالسير نحو الله يعني أننا نسير نحو الأبدية والبداية، وتجاه الحقيقة والحكمة. والحكمة الأزلية بكلمات القديس أوغسطين (تشرق) و تضيء عبر (السحب المظلمة) الداكنة القاتمة للزمنية والضلال.[١]

حين نتساءل (ما الطول؟) نفعل ذلك من خلال المقارنة (أن هذا أطول من ذاك)، أو أنه (أطول مرتين من ذاك) وهكذا دواليك. ولكن حين نتمكن من التمييز بين مسافات الأماكن، إذا كانت تحدث بسبب حركة الجسم، أو حركة أجزائها، أو إذا كانت تتحرك حركة مخروطية، وهنا هل نستطيع أن نقول بالتحديد في أي وقت تتم حركة الجسم، أو حركة أجزائه من هذا المكان إلى ذاك وانتهت ؟ ولذا نرى أن حركة جسم ما هي شيء، بينما ما نقيس به الزمن هو شيء آخر. ولكن أيهما يفضل أن يطلق عليه الزمن ؟ فالجسم يتحرك أحيانًا، وأحيان أخرى يظل ساكنًا، حينها يمكننا أن نقيس ليس حركته فحسب، ولكن بقاءه ساكنًا أيضًا) من خلال الزمن. ونقول : (إنه بقى ساكنًا تمامًا كما إنه تحرك أيضًا). أو نقول: (إنه بقى ساكنًا ضعفين أو ثلاثة أضعاف طالما أنه تحرك). أو أي مسافة أخرى. ونستخلص من ذلك أن الوقت أو الزمن ليس هو حركة الأجسام.[٢]

أهمية نظرية القديس أوغسطين في الزمان :

لها فى الواقع أهمية جوهرية فيعقب راسل على جعل أوغسطين الزمن حقيقة عقلية بأنها تعد نظرية في غاية القوة، وتستحق البحث والدراسة الجادة لها، ويرى أنها تتقدم بشدة على كل ما نجده من نظريات للزمن في الفلسفة اليونانية القديمة، بالإضافة إلى أن شرحها أجود وأوضح من شرح كانط (Kant) للنظرية الذاتية في الزمن، والتي أقبل عليها الفلاسفة بقوة. فالقول بأن الزمن ما هو إلا مظهرًا من مظاهر أفكارنا، هو أحد الصور المتطرفة للنزعة الذاتية، والتي إزدادت بالتدريج قديمًا، وذلك منذ بروتاجوراس وسقراط فصاعدًا، وجانبها العاطفي هو وسواس الخطيئة المتعلقة بالعقول، ويعرض القديس أوغسطين هذين النوعين من الذاتية، اللذين انتهت بهما النزعة الذاتية، ليس إلى سبق (كانط) فحسب في نظرية الزمن، ولكن أيضًا أدت إلى سبق ديكارت في الكوجيتو : (أنا أفكر، فأنا – إذن – موجود)، ويقول في نجواه : " أنت يا من تريد العلم، هل تعلم أنك موجود ؟ نعم إنني أعلم

---

(1) – Hans George Moeller, P.118.

(2) – Saint Augustine , The Confessions Of Saint Augustine, Translated By : Edward B. Pusey,D.D., 1960 ,U.S.A., Chapter xxiv, P. xxi.

ذلك، فمن أين جئت ؟ لست أدري، هل تشعر بذاتك واحدة أم كثرة ؟ لست أدري، هل تشعر بذاتك تتحرك ؟ لست أدري، هل تعلم أنك تفكر؟ نعم أعلم ذلك ".

وهو لا يقتصر على كوجيتو ديكارت فحسب، ولكن يشمل كذلك على رد موجه إلى جاسندي الذي يقول : " أنا أتحرك، فأنا إذن موجود " لذلك فإن القديس أوغسطين جدير بمكانة عالية ورفيعة بين الفلاسفة.(١)

كما يعد تعريف القديس أوغسطين للزمن في الكتاب الحادي عشر من الاعترافات (The Confessions) مصدرًا هاماً للكثير من النقاشات والدراسات الفلسفية بين كل من الفلاسفة واللاهويين على حد سواء.

ويتميز عرض أوغسطين لمفهوم الزمن والبحث فيه بالموضوعية والرؤية الخاصة المتفردة. كما يرى أن كلاً من مفهوم نفس العالم والنفوس الفردية يمثلان مفهومًا واحدًا بصورة ما.(٢)

ويرى اسبنيوزا Spinoza(1632– 1677) أن كلاً من الزمان والمكان مجرد صورة للفهم الإنساني ليس إلا بالإضافة إلى ارتباط تصور أوغسطين للزمن بالعلاقة بين الزمن والوعي البشري.(٣)

لعب القديس أوغسطين دورًا مهمًا مركزيًا في تطوير وتنمية الفكر التقليدي اللاتيني المسيحي، ووصل نقوذ أفكاره حتى الفلاسفة في العصر الحديث الكبار من أمثال : الفيلسوف الفرنسي رينيه ديكارت ، وليبنتز ، وحنا أرندت، مما يظهر الأهمية المستمرة لأفكاره.(٤)

ويختتم أوغسطين الفصل الحادي عشر من اعترافاته الذي خصصه لدراسة الزمن وتحليل أحواله بتسبيح الله على عظمته وأزليته ونعمه كلي المعرفة ومبدع الكون العظيم بكل أسراره وخالق العقول والنفوس والأجساد.(٥)

---

(١) – برتراند رسل، تاريخ الفلسفة الغربية، ص ٨٢.

(2) – Ronald J. Teske; To Know God And The Soul ; Essays On The Thought Of Saint Augutine, The Catholic University Of America Press, U.S.A.,2008, P.216.

(٣) – علي شاكر الفتلاوي، سيكولوجية الزمن، ط١ ، صفحات للدراسات والنشر، سورية، دمشق، ٢٠١٠، ص٢٧.

(4) – Ankur Barua , The Divine Body In History : A Comparative Study Of The Symbolism Of Time And Embodiment In St. Augustine And Ramanuja, Vol (45) , Religon And Discourse , Peterlang Publishings , Library Of Congress , U.S.A. ,2009, P. Vii.

(٥) – الخوري يوحنا الحلو، اعترافات القديس أوغسطينوس ، ص ٢٦٥.

من أهم النتائج التى توصلت إليها جراء هذه الدراسة ما يلى :

أولاً : يرى القديس أوغسطين صعوبة وارتباكاً فى تقديم تعريف دقيق ومحدد للزمن ، وذلك على الرغم من أن كل الناس يشعرون بالزمن، فإن لا أحد يستطيع أن يعرفه على وجه الدقة والتحديد، رغم أنه يجري بشكل شائع على كل الألسنة، ويقول فى "الاعترافات" وبالتحديد في الكتاب الحادى عشر فى تعريفه للزمن : "أنا أعرف الزمن طالما لم يسألني أحد عنه، ولكني أكف عن معرفته، وأرتبك، إذا شئت أن أشرحه لمن يسألني عنه"

ثانياً : يؤمن أوغسطين أن الماضى والمستقبل ليس لهما أى وجود على الإطلاق، وذلك لأننا انطلاقًا من حاضر الوعي نستحضر المستقبل من خلال الاستباق والتوقع ، كما أننا نستحضر الماضي من الذاكرة.

أما الحاضر فهو يمثل نقطة الانطلاق إما إلى الماضي أو إلى المستقبل، فالحاضر هو أساس الزمان عند القديس أوغسطين وليس المستقبل والماضي (البعدين الآخرين) للزمان.

كما يرى بأنه من الخطأ القول بوجود ثلاثة أزمنة : الماضى والحاضر والمستقبل، وأنه من الأصح والأصوب أن يقول إن في الكون يوجد ثلاثة أزمنة: حاضر الماضي، وحاضر الحاضر، وحاضر المستقبل، وأن حاضر الأشياء الماضية هو الذاكرة، وحاضر الأشياء الحاضرة هو الرؤية المباشرة (الانتباه)، وحاضر المستقبل هو التوقع.

والله أبدي أزلى وهو الذى خلق الزمن، وبالتالى فليس هناك للزمن وجود مستقل بذاته ويشير لاستحالة وصف الأبدي (الله) من وجهة نظر الموجود المؤقت والذى هو الإنسان، فالله موجود وحال في الزمان ذاته، كما أن الزمن هو ما يمارسه الإنسان.

ثالثاً : يحاول الإنسان دائمًا تعديل الماضي وتصحيحه، وتغيير وتحسين حاضره وواقعه الحياتى المعيش وذلك تمهيدا لحياة ومستقبل أفضل يرجوه ويتطلَع إليه. فالإنسان هو الموجود الزماني (بمعنى الكلمة)، وذلك لأن الحيوان لا يحيا إلا في الحاضر المباشر فحسب ، وليس للماضي لديه أي أهمية تذكر، ولا للمستقبل عنده أي معنى من معاني الأمل أو الرجاء على الإطلاق، بينما نجد أن الإنسان وحده هو الكائن الذي يستخرج من الحاضر خير ما فيه، وينتزع من الماضي أجمل الدروس والذكريات التى ينطوى عليها، وذلك بهدف بناء المستقبل الذي يأمل فى أن يكون أفضل من الماضي والحاضر على حد سواء.

رابعاً : إن المستقبل لا يصدر عن الماضي، بل إن الماضي هو الذي يصدر عن المستقبل. وإذا كان من شأن العلم أن يقف عند الظواهر، وأن يطبق عليها بالضرورة مبدأه في الحتمية، فما ذلك إلا لأن العلم يمضي دائما من المستقبل إلى الماضي، وبالتالي فإنه ينظر إلى كل ما سوف يحدث على أنه نتيجة ضرورية لما قد حدث.

وأما الإنسان الحر الذي يفصل في مصيره بما لديه من قدرة على الاختيار، فإنه يمضي من الماضي إلى المستقبل. بمعنى أن الإنسان لا يمكن أن يحرز أي تقدم أو تطور فى حياته، إلا إذا انفصل تماماً عن ماضيه.

خامساً : التاريخ يسلط الأضواء على الماضي، لكي يضع بين أيدينا الكثير من الدروس التي تعيننا على مواجهة كل من الحاضر والمستقبل. وربما كان الإنسان هو المخلوق الأوحد الذي لا يكاد يكف عن تشكيل ماضيه بنفسه، على ضوء ما يتصوره عن المستقبل، فالمستقبل هو وحده الكفيل بخلع المعنى الذي نريده على ذلك الماضي الذي لاسبيل إلى إعادته.

ويشير بعض الفلاسفة إلى أن : " الماضي هو صنيعة المستقبل "، وذلك بمعنى أن هذا المستقبل نفسه هو الذي سيحدد معنى ذلك الماضي البعيد الذي ننوء بحمله، فالماضى هو مستقبل المستقبل.

بالإضافة إلى أن التاريخ ليس مرتبطا بالماضي، ولكنه أكثر اتصالاً بالحاضر والمستقبل. فالتاريخ يمثل منظوراً للإطلال على الماضي من خلاله، ونقطته المركزية التي يستند إليها هذا المنظور هي الحاضر نفسه. ولأن هذا المنظور دائم التغير والتبدل من حال إلى حال، لذلك بتوجب علينا إعادة النظر إلى التاريخ،الذى يشهد على أن للمستقبل مركز الصدارة أو الأولوية على الماضي.

سادساً : لا توجد لدى القديس أوغسطين فينومنولوجيا خالصة للزمن، وانما تتضح نظريته حوله من خلال مناقشاته المتعمقة المستفيضة مع أصحاب النزعة الارتيابية (Skepticisme) والتى أنكرت حقيقة الزمان بصفة عامة سواء الماضى منه، أو الحاضر، أو المستقبل على السواء ، وذلك من خلال الشعور به وبمجرى تياره الباطني ذلك التيار الذى يجعلنا نشعر من خلال التعبيرات اللغوية بمدى المفارقة فيه.

قائمة المصادر والمراجع العربية والأجنبية

أولاً : المصادر العربية :

١. الخورى يوحنا الحلو، إعترافات القديس أوغسطين، التراث الروحي، الكتاب الحادى عشر استغاثته بالله في أداء رساله الجديدة، ط4،، دار المشرق ، بيروت، لبنان، 1991.

ثانياً : المصادر الأجنبية :

1- Saint Augustine , The Confessions Of Saint Augustine, Translated By : Edward B. Pusey,D.D., U.S.A., 1960.

ثالثاً : المراجع العربية والمترجمة إليها :

١. برتراند رسل، تاريخ الفلسفة الغربية، الكتاب الثاني الفلسفة الكاثوليكية، ترجمة : زكي نجيب محمود، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، 2010.

٢. بول ريكور، الزمان والسرد الحبكة والسرد التاريخي، ترجمة : سعيد الغانمي وفلاح رحيم، راجعه عن الفرنسية : جورج زيناتي، ط١ ، الجزء الأول، الكتاب الجديدة المتحدة ، بيروت، لبنان، 2006.

٣. بول ريكور، الوجود والزمان والسرد، ترجمة وتقديم : سعيد الغانمي ، ط١ ، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان ، 1999.

٤. زكريا ابراهيم ، سلسلة مشكلات فلسفية ، مشكلة الحياة ، مكتبة مصر ، ١٩٧٠م.

٥. عاطف العراقي، ثورة النقد في عالم الأدب والفلسفة والسياسة، مكتبة جزيرة الورد ، دار الوفاء ، الإسكندرية ، ٢٠٠٠م.

٦. عبد الرحمن بدوي، فلسفة العصور الوسطى، ط٣ ، دار القلم، بيروت ، لبنان ، 1979.

٧. علي زيعور، أوغسطين مع مقدمات في العقيدة المسيحية والفلسفة الوسيطة، ط١ ، دار اقرأ، بيروت، لبنان، 1983.

٨. علي شاكر الفتلاوي، سيكولوجية الزمن، ط١ ، صفحات للدراسات والنشر، سورية، دمشق، 2010.

٩. فيرنر هاينزبرج، الفيزياء والفلسفة، ترجمة : أحمد مستجير، تقديم : بول دافيز، ط١ ، المكتبة الأكاديمية، القاهرة، 1993م.

١٠. قيس ماضي فرو، المعرفة التاريخية في العرب، مقاربات فلسفية وعلمية وأدبية ، ط1، المركز العربي للأبحاث ، بيروت، لبنان،، 2013.

١١. يوسف كرم، تاريخ الفلسفة الأوروبية في العصر الوسيط، مؤسسة هنداوي ، القاهرة، 2014 م.

رابعاً : المراجع الأجنبية :

1 - Andrea Nightingale, Once Out Of Nature : Augustine On Time And The Body, Library Of Congrers , U.S.A. , 2011.

2 - Ankur Barua , The Divine Body In History : A Comparative Study Of The Symbolism Of Time And Embodiment In St. Augustine And Ramanuja, Vol (45) , Religon And Discourse , Peterlang Publishings , Library Of Congress , U.S.A. , 2009.

3 - Friedel Weinert , The Scientist As A Philosopher: Philosophical Consequences Of Great Scientific Discoveries, Springer Press , Germany, 2005.

4 - Hans George Moeller , The Philosophy Of The Daodejing, Columbia University Press, New York, U.S.A, 2006.

5 - Michael Tippett , Tippett On Music, Edited By ; Meirion Bowen, Clarendon Press, Oxford Univercity, Great Britain , 1995.

6 - Ronald J. Teske; To Know God And The Soul ; Essays On The Thought Of Saint Augutine, The Catholic University Of America Press, U.S.A.,2008.

7 - Russell West, Temporalities, Pavlov, Routledge Taylor And Françis Group, London And New YorK ,2013.

8 - Saint Augustine Of Hippo : An intellectual Biography, Miles Hollingworth, Bloomsbury, London, Great Britain, 2013.

9 - Simaon Cohen , Transformation Of Time And Temporality In Medieval And Renaissance Art , Brill, U.S.A. 2014.

10- Stacy Magedanz, MLS, Cliffs Notes On St, Augustine's Confessions , Wiley Bublishing Inc , U.S.A , 2007.

11- Stephan Kampowski ,Arendt, Augustine And The New Beginning : The Action Theory And Moral ,Thoughts Of Hannah Arendt In The Light Of Her Dissertation On St, Augustine, , Library Of Congress, U.S.A., 2008.